قصص

الطبعة 2

نردين أبو نبعة

بَوح

ببلوتيكا

قصص

نردين أبو نبعة

بَوح بلوتيكا

الرمحي أحمد كت ٣٤ ـ ا ب

أزمنة

الإهداء

إلى

ربان الموجة

إلى من طرزني دفئاً

ألقاً

إلى من أشعل مساحات صمتي

أهدي بوح... أنفاسي

... إلى زوجي

هل تُرانا ندرك معنى الموت منذ لحظته الأولى؟ وهل تكون فجيعته عند الدمعة الأولى؟ أم إنه يتحايل علينا ويؤجل فجيعته إلى كل اللحظات القادمة؟ هكذا أخذتُ أتساءل وأنا أتأملها، أتأمل جسدها المسجّى بلا حراك، باردًا صامتًا، ومن شدة وقع الأمر عليّ لم يعد في رأسي إلا أمْرٌ واحدٌ؛ وهو: «هل الألم الذي أشعر به الآن سيقتصر على هذه اللحظة .. أم أنه سيمتد إلى كل أيامي القادمة؟

وهل سأكون مثل كل الناس، أبكي قليلاً .. ثم أضع جرحي في كيس النسيان وأمضي؟!! وأعبر إلى الحياة مرةً أخرى!!

أخذتُ أعانقها وعيناي تطبق بسرعة على دمع سريع الخُطا، أوصتني يوماً ما بأن لا أذرفه أبدًا عند موتها، فانحنى انحناءة خفيفة وغار.. اعتقدت حينها أني فقدت دمعي للأبد .. لكن تبين لي فيما بعد .. أنَّ الدمع هو أقل تعبير عن الحزن .. وقد يكون الصمت هو الذي يعبر عن حزنك بأمانة وصدق!!

«موت الأم يقصم الظهر»، كانت أمي تقول ذلك دوماً، وكنتُ كلما قالت ذلك أهرب بعيداً عن عينيها، وأبحث عن زاويةٍ أخلو فيها بنفسي، لا أحد يراها، حتى لا يشهد دخاني أحد، لم أكن أعي تلك المقولة مع ما كان يُصيبني من الألم عند سماعها لكن؛ أن تسمع المقولة شيء، وأن تسقط على رأسك شيءٌ آخر!.

كانت فكرة لقائي بها.. حقيقة تتزايد يوماً بعد يوم .. حقيقة تجعلني لا أحتمل الحياة بدونها .. وعندما أحاول اغتيال الفكرة .. ودفنها .. أشعر بنفسي «أقترب من الجنون» لم أكن صغيرة حينما ماتت أمي، ولكن هل موت الأم يقصم ظهر الصغار فقط .. صحيح أنه مؤلم وقاسٍ على الصغار.. لكنه للكبار .. بطعم الشتات والمنفى .. أحسَسْت حين موت أمي أني بلا وطن.. نعم، الأم كالوطن، فعندما يفقد الإنسان أمه يفقد وطنه.. فكيف بمن يفقد وطنه مرتين؟

وبَدأَتْ تغزو كل تفاصيل حياتي .. في الحقيقة لقد أرهقتني .. أرهقتني لأنني لم أعد أرى للأشياء حولي لونًا.. ضحكة طفلتي ومحاولتها الكلام بحروف مكسَّرة لم تعد تثير فرحي.. لأني فقدت ضحكتها، حضوري لمنزل العائلة.. لم يعد يعنيني، أشعره معتماً قارصاً كالثلج وبرودة الثلج تلسع كالنار.

لكن هناك شيء غريب بدأ يحدث.. شيء حقيقي.. فأنا لا أتخيل وأعتقد أنني لم أجَنّ، فعندما تخرَّج حسَّان وبدأ يحضر لزفافه تساءلت: كيف

سيكون عرس حسان دونك؟ كيف سنزغرد ونصفق دونك؟ لقد بدا حسان جميلاً هادئًا، يسير بجانب عروسه، كانت زينةُ ومَها تبكيان بحرقة لأنكِ لست بجانبنا، أما أنا فقد رأيتك تسيرين خلف حسان، ترددين بعض آيات القرآن خوفاً من الحسد، وسمعت صوتك تنشدين .. «لبِّس. لبِّس يا حسان .. مالك زعلان .. يا سارة على جنبك عرق الريحان».

وصرتُ أحاول إسكات مَها وزينة قائلةً لهما:

ـ أمي معنا لا تبكيا .. ها هي .. فأخذتا تبكيان أكثر وأكثر.

وعندما أنجب حسان طفله الأول ووصل الخبر عبر الهاتف من السعودية صارت أنفاسي تخرج بفوضى غريبة، فوضى تُلملم لحظة لطالما انتظرتها أمي .. لحظة ولادة حفيد، أعدَّت له قبل وصوله إلى الدنيا ما يحتاج من ملابس وأغطية و«شامبوهات»، في تلك اللحظة تركتُ سمّاعة الهاتف بنشوة، دون أن أنبس ببنت شفة، وأسرعت إلى غرفة أمي، فتحت دولاب ملابسها وأخرجت ملابس الوليد المنتظر .. الأغطية .. العطورات .. ورأيتها تكتب على كل قطعة ملابس:

ـ [انتظرتك طويلاً .. لا تحزن لغيابي، قد يكون للغياب دهشة وجمالٌ أكثر من الحضور .. مع كل حبي] .. «تيتا أم حسان».

نثرت الملابس على السرير، نظرتُ إلى مها وزينة اللتين استغربتا تصرفي، وابتسمت لهما قائلة:

ـ هل تظنان أن الموت رحيل؟

نظرت كل منهما إلى الأخرى.. بدا السؤال غريباً!!

ـ لا أظن ذلك، هل يرحل من يموت؟ قد يرحل عن صخب الحياة القاسية، لكنه ينعم بدفء قلوب محبيه، يشاركهم لحظاتهم المفعمة دفئاً يسكن حتى أنفاسهم.

ـ عانقتني أختي وهي تتلمس شعري.. ملامحي.. بخوف أنثوي جميل.. تسألني:

ـ هل حقاً ترين أمي؟

ضحكتُ وضحكتُ وقلت لها:

ـ عندما أضع رأسي على الوسادة تسرع أمي أليَّ.. تجلس عند رأسي، تداعب خصلات شعري بأناملها.. أتأملها بجسدها المكتنز الصافي وشعرها الأسود الذي لم يخالطه الشيب مع أنها قاربت الستين، فأبدأ أبث لها تفاصيل يوم كامل، كأنها تعوضني عن أيام ماضية، كان فيها صدري مثقلاً بالشكوى والهموم أحاديث تعرف أنه لَن يتسع لها إلا قلبها.. كان العالم موصدًا في وجهي لكن رنة صوتها تفتح لي أبواب الدنيا.. «الله يرضى عليك ..» تسكن وحشة أيامي .. حتى لا أكاد أسمع غيرها.

قالت لي أختي بأسى.. : إني أحسدك ..

لكنها في النهاية كفَّت عن طرح الأسئلة.. وتقبلت وضعي وهي تراني أسير في الشارع أمسك بيدها.. أتحدث إليها.. امرأة قاربت الستين شعرها أسود.. لم يغزه الشيب بعد.. ففي الموت كما الحياة .. نحتاج لكذبة كي نقوى على الاحتمال.

الأصعب هو لحظة اتخاذ القرار وإعلانه، أما ترويض الآخرين وإقناعهم بقرارك.. فهذه مسألة وقت.. هكذا كانت تحدِّث نفسَها وهي تفكر فيه..

عبثاً.. هي لا تريد أن تُقدِم على خطوة كهذه إلا بموافقة العائلة؛ الأب والأم والإخوة وحتى الأخوات العزيزات. لا شك أنه قرار صعب.. لكنها اتخذته ولا بد أن تُقنعهم. لأن الزواج فيه الكثير من المغامرة والضجر.. والحزن أيضاً، ومن الخطأ أن تغلق المرأة بابها على من تحب دون أن تتركه موارباً. فقد تخذلها الحياة. وقد يخذلها هو.. لا تدري!! فلا بد من صدر آخر ترتمي عليه..

تذكُرُ حينما فاتحتْ والدها بالموضوع، علتْ وجهَه حمرةَ الغضب، لكنه مسح على رأسها.. كاظماً غيظه..

ـ يا ابنتي.. أخاف عليك إن ارتبطت به.. أن تفقدي بهجة الحياة!!

ـ أعترف أني ما كنت أتوقع يوماً أن أرتبط برجلٍ مثله، فهو ابن عائلة معروفة يحتل مركزاً مرموقاً كأستاذ جامعي، عدا عن وضعه المادي المريح.. لكن هذا كله في كِفّة ميزان، وملامحه التي توحي لي بكثير من الطمأنينة في كِفّة أخرى، كلماته.. فيها كثير من الغموض.. مما يغريني للغوص في أرجائها واستنشاق عبيرها.. إنه ليس ككل الرجال.. في كل مرة أجلس معه أنبهر به أكثر.. ويغريني..

بمواصلة.. البحث.. عن أشياء كثيرة.. كلما وجدت واحدة منها.. استعدت بهجتي.. !!

لم يُلحّ والدها عليها بالرفض وكأنه.. كان يشعر أنها ستراجع نفسها وتتخلى عن قرارٍ سخيف كهذا!!

ـ لكنها فاجأته بقولها: عجيب أمر الحب، حين تُقنع نفسك أنه لن يأتي لطول انتظاره.. يُفاجئك بقدومه، على غير موعد لاهثاً فاتحاً ذراعيه، وبعد ذلك تطلب مني أن أقابله ببرود وقد طال انتظاري!!

ـ لا أملك أن أقول لك.. سوى أنَّ الحب كالمطر في فصل الشتاء، إنه مقصور على الشتاء فقط وعندما تصحو الدنيا وتنقشع الغيوم ستبحثين عنه وأخشى أن لا تجديه، أخشى أن تكوني أحببت حاله الحب، تريثي ولا تتسرعي.. فليس من السهل أن ترتبطي برجلٍ مثله، أسألت نفسك؟ ألا تخجلين من الارتباط برجل كهذا!!

ـ ولماذا أخجل.. إنه ليس بمجرم ولا سارق ولا خائن فلماذا

أخجل.. إن ما يفقده هو ما يزيده شأناً في نظري.. فقد يرتفع شأن الإنسان بما يملكه.. لكن قد يرتفع شأنه أكثر بما يفقده!!

تَذكُر يوم زفافها وقبل أن تقترب من قاعة الاحتفالات أخذت نفَساً عميقاً.. ثم أخرجته على دفعات، أمسكت بيده، دخلت إلى القاعة.. كانت أصابعه تشدُّ على يدها بقوة.. الكل ينظر بذهول، سمعت إحداهن تهمس:

ستكون مجرد عصا يستدل بها على طريقه..

ما أحزنها في ذلك اليوم.. أنها لم تستطع الرد على تلك المرأة.. وارتبكت حتى كادت تقع.. وقبل أن تلملم فستانها همست له:

ـ لا تخف، أن يقع الإنسان يعني ذلك أنه يحاول أن يقف، وبمساعدتك وقفت.

ارتسمت ملامح رضا... لم تغادر شفتيه.

كان والدها يتأملها يوماً بعد يوم، وكأنه يتأمل لوحة تضج بالحيوية والحياة، والرسام ما زال يُشبعها ألواناً كلما بهتت، أيقن حينها أنها ليست العصا التي سيتكئ عليها كما توقع، بل هو العصا التي تهش بها على خيباتها وأحزانها مانحاً إياها دهشة الأرض بالمطر!!

ولادة

١٤٤٦٦٩

دمٌ يسيل يُلوِّث المكان، صرخات تُشعل صمت الليل ضجيجاً.. تصرخ المرأة تتكئ على كتف زوجها.. المحاصر بالصمت والخوف والعتمة، تستجدي الجنود أن يسمحوا لها بالعبور.

ينظر آدم إلى وجهها نظراتها تعذبه وأناتها تحاصر عجزه، ويدها التي تشد على يده تهزه حتى ليغرس اليد الأخرى في التراب.

نظرت إلى يده المغروسة في التراب انتفض جسدها وضعت يدها المرتجفة فوق يده وصرخت بصوت مكتوم كم هو صعب أن يصل قهر الرجال إلى درجة أن يغرسوا أيديهم في التراب.

أعياها الوجع والذل، تحاول أن تتماسك، والدماء تسيل بغزارة.. والجندي ينظر إليها بقرف..

يقترب جندي وبابتسامة خبيثة يقول:

ـ اكشفي عن بطنك حتى أتأكد أنك حامل، ما يدريني لعلك تحملين

حزاماً ناسفاً، على كلٍّ الأمر الوحيد الذي ما زلتم تتقنونه هو الإنجاب، تنجبون للزنازين!! ... يضحك..

صرخت: بل ننجب لكي نحطم الزنازين.

تمتلئ أقدام آدم بخطواتٍ يلصقها بالإسفلت البارد، يضيِّق الخناق على أنفاسه التي تكاد تمزق صدره! لا بد أن يقهر غضبه حتي يستطيع أن يوصلها إلى المستشفى، صوتها يلتف حول رجولته المقهورة حبلاً يكاد يخنقه.

الوقت يمر ببطء زارعاً الرعب والوجوم.. الحاجة أم آدم ترفع يديها إلى السماء بدعاء مرتعش أن يخفف الله عن زوجة ابنها.

يشعل آدم سيجارته.. نافثاً دخانها في الهواء. النار تشتعل بين أصابعه، لا يدري ماذا يفعل يرتعش جسده خوفاً على عائدة وهو يقول:

ـ آه الأرض أرضنا، صارت مقطعة بالحواجز.. بين كل حاجز وآخر.. هناك حاجز يوقظنا.. من نومنا..

تصرخ عائدة وهي تتنفس الموت والألم:

ـ هذا ليس وقت الكلام، اذهب للجنود، أخبرهم أني سأموت.

ـ وبسخرية تحمل دموعاً يقول:

ـ حتى الكلام أصبح ليس له وقت عندنا!!

ـ وما قيمة الكلام.. إن لم يمطر!!

اقترب آدم من الجنود:

ـ لقد فتشتم السيارة والهويات وتأكدتم أن كل شيء طبيعي، زوجتي ستموت إن لم تصل إلى المستشفى.

ـ دع والدتك تقوم بالمهمة أو ارجع بها إلى القرية.

يحدق آدم بالجندي.. يكزّ على شفتيه.

ـ الداية قالت إن الجنين في وضع غير طبيعي، رأسه إلى الأعلى والنزف يشتد، يجب إجراء عملية سريعة له، إنه مولودنا الأول وما زالت نابلس بعيدة عنا، نحتاج لأكثر من ساعة حتى نصل، هذا إذا لم يوقفنا حاجز آخر.

يقهقه الجندي بسخرية قائلاً: رأسه إلى الأعلى!! يا سلام .. وما الذي جعلنا نقيم كل تلك الحواجز إلا هذه الرؤوس العالية، الأفضل له أن يبقى في بطن أمه إذن.

عدَّل الجندي من وِقفته، نظر نظرة غامضة، فيها الكثير من الاحتمالات المخفية، أمسك بتلابيب الزوج وصرخ:

ـ لقد مرت ثلاث ساعات دون أن تمر سيارة واحدة والليل بسكونه يشعرني بالملل والقرف لن أجعلك تمر حتى تكشف زوجتك عن بطنها أو يبزغ الفجر.

صرخ آدم:

ـ أي فجر.. ما زال لدى الفجر ست ساعات حتى يبزغ.

الدم يتدفق يجرف صبر الزوج، أنفاس المرأة تضعف وجهها يزرق صرخاتها تتعالى، تمد يدها لتصطدم بالفراغ .. تئن تئن تصرخ صرخة

تستجمع فيها قوتها .. تلملم ارتعاشها لتدفع بطفلها إلى الحياة.

امتلأ صدر عائدة بهواء تراقص مع صوت الوليد!! لم يصدق الجنود ما حدث .. كبَّر آدم أخذ الجنود يبصقون في وجهها يركلونها بأقدامهم.

ركضت الحاجّة أم آدم التقطت الطفل ودثَّرته بشاشيتها لم تقوَ عائدة على الكلام فأغمضت عينيها وراحت في إغماءة، أفلت آدم من يد الجنود ركض نحوها وهو يصرخ:

ـ لقد ماتت .. لقد ماتت .. سأقتلكم.

ـ إنها لم تمت فالكلاب لا يموتون بل يطلق عليهم الرصاص ..

رصاصات انهالت على رأس آدم، استفاقت عائدة على صوت الرصاص:

ـ أيها الخنازير قتلتم زوجي ..

تنادي أم زوجها أن تهرب بالطفل بعيداً ..

تحلَّق الجنود حول عائدة، النزف يشتد حتى تَصفّى دمها في مصفاة الحقد ثم عاجلها الجندي برصاصة.

وفي ليلة مليئة بالقرف والملل وجد ثلاثة جنود مضرجون بدمائهم عند حاجز قلنديا فيما بدا أنه كمين نصب لهم وصلت دوريات الاحتلال إلى القرية المجاورة التي ظنوا أن المخربين انطلقوا منها، أخذوا كل شباب القرية للتحقيق .. للتعذيب .. ولم يخطر على بالهم أن يأخذوا طفلاً لم يتجاوز الثانية عشر ينام في حضن جدته.

مُزْقَةُ حُلمٍ

أيمكن أن تحصل على غفوة طفل صغير .. هكذا بدون مقدمات، ولا تحايل، لا تدري .. أو لعلها تأكدت أن ذلك مستحيل، إنها تشتهي أن تنام دون أن تستحضر (مزقة حلم) تكسوه لحماً وعظماً، حتى يصبح على شكل حقيقة .. فتلاعبه وتجرجر خيوطه، وتمسك به في خفةٍ وبراعة، كما يمسك محرِّك الدُّمى دُماه، يحركها كيفما شاء، وينطقها ما يشاء .. وفي كل ليلة يقف ذات الحلم عند رأسها .. يذهب بها إليهم أو يأتي بهم إليها . .

تستلقي على سريرها .. تغلق عينيها، تحلم بهم حولها، الأبناء، الأحفاد، تفوح رائحة الحب الممتزجة بعبق الأنفاس المائجة بحبها، تسمع أنين الصغيرة رولا وهي تمسك (الكوفلية) التي خاطتها الجدة وطرزتها بدب أزرق كبير، تسمعها وهي تصرخ بأمها:

ـ ألم أقل لك دعيني أنمْ ولو مرة واحدة عند الجدة . .

وحمودة يصرخ: من سينسج لي الكنزة الصوفية المطرزة بالدرّاجة التي

وعدَتني بها الجدة؟ من سيعد لنا فطائر الزعتر ..، ويلقي بجسده النحيل على الأرض مخبئاً وجهه بكلتا يديه، وأقدامه تضرب الأرض حنقاً.

دموع الأبناء الساخنة تتساقط على وجهها، تحيي الأطراف الباردة .. تمسح على حرقة القلب، تسمع صرخاتهم وهم يودعونها ويطبعون قبلة الوداع على جبينها البارد، قبل أن تستحضر هذا الحلم لا تستطيع أن تنام بسكينةٍ وهدوء.

تعرف أن الموت حق.. لكن أليس من حق العجوز أن تحلم بموتٍ دافئ ولائق؟ أم هذا يصبح كثيراً على عجوز أذابت عمرها في أعمار خمسة من الأبناء لا تعرف ماذا حصل لهم؟ لماذا لا يعبرونها .. حتى كسحابة؟ إنهم يتذرعون بأشياء كثيرة باتت لا تفهمها .. إنها لا تفهم سوى هذا الحلم الأصم، لكن النوم لا يطرق أجفانها قبل أن تستحضره .. يقولون إنَّ الإنسان عندما يهرم تموت أمانيه .. وإن بقي بضعٌ منها؛ لا يندهش، لا يتألم إن تسربت من بين أصابعه!!

هذا مجرد هراء.. إنَّ الأماني لا تنأى عن الإنسان، لكنها تصبح هادئة، تعانق المرء في اطمئنان، قد تصبح صغيرة وتافهة في نظر الأبناء، لكنها أمنيات دافئة، تعين على الاحتماء من برد الصمت وحصار الذكريات.

تستيقظ في الصباح .. بمزاج رائع .. تسرع إلى المطبخ، تضع إبريق الشاي على الموقد .. وهي تُسَبِّحُ الله وتلهج بالدعاء للأبناء الخمسة، تعد فطائر الزيت والزعتر، ولا تنسى الزيتون والجبنة النابلسية المغلية المطعَّمة بحبة البركة التي يحبها عرفان، تجلس على الطاولة .. مع حلم أصم ينثال

حول مائدة كلٌ ما عليها فقاعة هواء!!.

تذهب إلى غرفهم مسرعة، تدق باب عرفان وبصوتٍ يُسرف في الحب تنادي:

-عرفان .. علاء .. هيا يا عرفان، قم يا علاء، ستتأخران عن المدرسة.

ثم تذهب إلى غرفة البنات لتوقظهن .. وبنفس الترقب والحب تضع صورة كلٍ منهم على كرسيه، يتكئ كوعها على طرف الطاولة ويدها على خدها، تتأملهم، ثم تنهرق الصور وتتوحد مع الصمت، وتسقط دمعات ساخنة على الطاولة الفارغة!.

يُدَق الباب، على عجل تسرع لتفتح الباب، ينشق الباب عن خشخشة هواء أو مزاح أطفال الحارة الذين يعرفون أنها وحيدة، تغلق الباب .. تغلق قلبها؛ الذي ما لبث يتقدم في وحل اليأس يوماً بعد يوم .. تُخرِج كتب عرفان من الدرج، تستنشق هواءً مفعماً بدخان حريق! تصرخ أعماقها .. عندما يدفن الزمن مداده في وجهنا، حول فمنا وأعيننا ويصرُّ أن يخلع بقعه البنية على أيدينا، فتصبح سميكة وجافة، يقتل فينا أشياء، ويرتب أشياء أخرى، أيعقل عندما ينزلق هذا الجسد إلى هذا الخلاء، تفقد حتى من يُلوِّن عينيك برؤيته، وتفقد حتى من يعينك أن تفتح نافذتك لتجعل الشمس تعصف بالركن البارد.

يدق الباب .. تبلع حبة الدواء على عجل .. تتعثر بالطاولة وهي تركض لتفتح الباب، تسمع ضحكات أطفال الحارة .. تقتنع بأن لا أحد على الباب

وإن دُقَّ ودُقّ.

من قمة الفوضى والضجيج إلى أسفل الصمت والخواء القارس . .

ـ والله هذه معادلة صعبة لا أفهمها . .

هكذا توشوش أم عرفان للكتب والدفاتر التي تركها الأبناء . .

يرتفع صوت أطفال الحارة بالضحك وهم يتلصصون على أم عرفان من النافذة . .

ـ لقد جُنَّت المسكينة، إنها تتكلم مع نفسها!.

ـ أين أولادها؟

ـ لا أحد يعرف . .

ـ هل هم مسافرون؟ ميتون؟

تجيب أم عرفان بحسرة: بل سرقتهم أحلامهم . .

ـ إنها مسكينة لا تجد من يحمل لها رغيف خبز . .

تبكي أم عرفان .. إنها تشتاق إليهم .. تخاف أن تموت دون أن تراهم.

تمسح أم عرفان النرف عن الكتب عن الدفاتر، كما تفعل كل يوم، هذا دفتر الحساب، الاسم عرفان، الصف التاسع، المدرسة ابن خلدون، المادة الرياضيات .. كل المسائل كان يحلها بطريقة صحيحة، ويسمّي الأستاذ دفتره بالعبقري . .

تختلط دموعها بالمسائل الرياضية فتبدو الأرقام ذيلاً لحيوانٍ مسعور.

يدق الباب، تدخل الجارة أم سامر .. فقد تركته أم عرفان مفتوحاً حتى لا يُقتل الحلم كل لحظة، عانقتها معاتبة:

ـ ما بالك يا امرأة؟ .. لماذا لا تخرجين إلينا .. تُرفهي عن نفسك قليلاً. .

تضحك أم عرفان: إذا كان القلب معتماً .. فهل الزيارات هي التي ستنيره، دفتري تمزَّق وبلي، ومسائلي حللتها بطريقة خاطئة، فوسمت الحياة دفتري سنين عجافاً تتلوها سنونَ عجاف.

ـ لا يا أم عرفان .. لن تصبح سنوات العطاء والحب سنين عجافاً!.

ـ بل تصير .. عندما نُعلِّم أبناءنا كيف يأخذون وننسى في غمرة حبنا أن الإسراف في الحب؛ كالتقتير فيه، يجب أن نعلمهم العطاء، وإلا فستتلون أجمل الأيام بالنكران .. أجمل الأيام أيام القطاف .. ولكن عندما يكتظ القاطفون وينسى الأبناء حصتك، فيتناثرون في الدّراسة، وتلتهمهم الأفواه، تتلون أيامك بالسواد . .

تخرج أم سامر وهي لا تعرف بماذا تجيب هذه العجوز .. غير أنها عرفت أن حياتها تصلح لقراءة متأنية . .

تقف العجوز على النافذة .. يهرب الأولاد عندما يشعرون أن العجوز قد انتبهت لهم، عيناها تلاحقهم، تلاحق في أبناء الحارة أبناءها، تلاحق حقائبهم وأحذيتهم المبعثرة في الغرف، تصيح:

ـ ألا تنتهي طلباتكم، تعبت والله . .

تخرج من الغرفة وهي تتحسس ملابسهم، كتبهم، الجدران، الأحذية،

الأقلام، المساطر .. كل شيء يفوح برائحتهم، يسكنونها وترحل عن ذاكرتهم وأفئدتهم.

يدق الباب من جديد .. تمشي بتثاقل .. تنظر من العين السحرية .. إنهم هم أبناؤها .. تضع يدها على المفتاح، تحاول فتح الباب لكن أصابعها تسحبه خارجاً .. يدق الباب ويدق ..

ـ أمي .. أمي افتحي الباب .. أنا عرفان .. وأنا علاء!

تنسحب إلى الطابق العلوي من المنزل، تستلقي على سريرها، تلمح الحلم الأصم من جديد، تتأمله، تشرب قليلاً من الشاي .. إنه بارد، مع أنها تحبه ساخناً يلسع لسانها، إلا أنها تعودته بارداً ككل شيء في حياتها ..

تشير إلى الحلم أن يقترب .. يَقترب مرتاباً .. تجره إليها بخيوطها، تتفحصه جيداً، إنها سئِمته وسئِمت أحلامها الصماء، سئِمتْ دقات الباب الذي راودته وراودته فاستعصم .. الآن لا .. لن تفتح الباب .. ليس هذا هو الوقت الذي تحتاجهم فيه!!

أمسكت بكومة الأدوية التي قرب سريرها، قذفت الباب من أعلى، قذفت حلمها الأصم .. تَهشَّم وتناثر أشلاءً مزاوجة بين الوحشة والعزاء.

ليست شديدة الاكتراث بأنها لم تتزوج وقد تعدت خطاً رسمه المجتمع بلون أحمر، كانت تفتخر بأن هذا الأمر لم يعكر صفو حياتها، ولم يجعلها كئيبة، لم يكن الزواج من أهم أولوياتها، بل لم يكن من أولوياتها أصلاً، كانت تعرف كيف تُحوِّل حياتها إلى موطنٍ يسكنه الكثيرون، ولم تعبأ بأن يكون لها موطن عند أحدهم، تذكر كيف سألتها إحدى صديقاتها المتزوجات:

ـ أين أحلامك بين كل هذا الضجيج؟

ـ بارتباك جميل .. قالت: الأحلام كلها .. شاهقة .. فلذلك تعلمت أن لا أرهق عقلي في كيفية الوصول إليها، فكلما أبديتْ قدراً من اللامبالاة اتجاه حلمك جاءك بشغف!!

لكنها تدرك بحدسها الأنثوي أن صديقتها قصدت حلماً من نوع آخر، يتسلل .. يشعل فتيلة القلب دون استئذان ولا مقدمات، وحينها لا تنسى أن تلمح بضحكة ساخرة فيها الكثير من اليقين . .

- ببطء .. أو بسرعة، سنجد أنفسنا عند اللحظة التي كتبها الله لنا..

وأما إذا لمحت في عين صديقتها بعض التردد في طرح سؤال من نوع آخر.. تسارعها بالإجابة:

- الأمومة .. إنها شيء رائع، ضوء قمر بعيد لكنه يصلني ويمدني بنوره، إنني أمارس هذا الدور وأشدو كالطيور فأمنح أبناء إخوتي كلَّ ألحاني وصخبي، يهدأ مركبي بجوارهم، أبحر وإياهم في عالم جميل من البوح واللعب، أشاركهم حل مشاكلهم ودروسهم، هذه الساعات التي أقضيها بصحبتهم تمنحني الاتزان والرضا، ثم من قال لك بأنني حتى أكون أمّاً لا بد أن أنجب!!

كانت تستمع بشيءٍ من الاهتمام إلى صديقاتها المتزوجات اللواتي يدَّعين السكينة والطمأنينة والإشباع في حياتهن، عندما وصلن إلى مطعم مجاور للمدرسة التي يعملن فيها وذلك لتضليل الكآبة، طبعاً كانت هي في المقدمة، كيف لا والصديقات الست حريصات أن تكون هي في المقدمة، فوجودها كافٍ لإشعال الجلسة مرحاً وضحكاً.

أخذت مقعدها بجانب النافذة، كانت صامتة على غير عادتها، تحدق بحسرة ومرارة في شاب وفتاة يمرَّان بمحاذاة النافذة، كان الشاب يحاور الفتاة بألفة وحميمية، الفتاة تصغي حالمة كأن الدنيا تعثرت فوقعت بين يديها. كانت تحرك فنجان القهوة بملعقة صغيرة .. وهي ساهمة والدموع تنساب من مقلتيها تجيب على كثير من الخيبات، يا للسخرية وهي التي

ظنت نفسها مختلفةً تماماً عن كل النساء!! تخيلت نفسها يدها في يديه، حرارة سرت في جسدها، انتابها إحساس مفاجئ بضرورة مسح دموعها فوراً .. وتأثيث وجهها بابتسامة صغيرة تخفي لحظة انجراف نحو حقيقة لطالما ظنتها وهماً!! كانت تضحك بصوتٍ عالٍ وهي تفكر، كيف يقع الإنسان في مواجهة لم يعدّ لها جيداً، ولا يفيده في لحظةٍ كهذه ذكاءٌ ولا تبريرٌ، وخاصة مع صديقات متزوجات أنهكنها أسئلة عن الضجر والوَحدة وتقدم العمر..

أخذت تضحك بخُبث عندما استدارت حول صديقاتها لتبرير حالتها.. وإذا بهنّ يراقبنَ الشاب والفتاة بولهٍ، عرفت حينها أنهنّ يفتقدن حباً دافئاً، وهي التي حسبتْهنّ ممتلئات .. لكنها اكتشفت .. أن المشهد لم يشعل النار في غابتها البِكر؛ بل أيضاً في غابات صديقاتها.!!

يطلق مانس النار .. باتجاه الجسم الغريب .. يصرخ حوزيه..

ـ لماذا تطلق عليه النار؟

ـ إنه انتحاري .. ألا ترى!!

ـ ما هذا الهذيان، إنه لا يبدو كذلك .. إنه يمشي بلا مبالاة كمن يمشي بين اليقظة والنعاس، وعيناه تحدِّقان في الفراغ، اللعاب يسيل من فمه .. لا .. لا يبد وكذلك.

ـ يا أبله إنهم يفعلون ذلك بقصد التمويه .. حتى إذا ما اقترب منك فجَّر نفسه وتحولتَ أشلاءَ معه .. لا تلتفت إلى شكله. انظر كيف يقترب منا .. إنك جديد على مهمة كهذه .. وجودك على الحاجز سيغير أشياء كثيرة في نمط تفكيرك ..

هرب حوزيه بنظراته بعيداً عن مانس ..

ـ طوال حياتي مانس، لم يخطر ببالي أن تكون إسرائيل مدينة الهلاك،

ظننت وأنا أركب الطائرة متجهاً إليها .. أنني أتجه إلى قرص شمس يمنحني الدفء وطعم الحياة.. فوجدتني في جهنم، كل يوم في إسرائيل يعني أسباباً إضافية للخوف والضجر .. والهرب!!

ـ ابتسم مانس ابتسامة مليئة بالدهشة والغيظ، شعر برغبة شديدة في صفع حوزيه هذا الجندي الجديد القادم من أثيوبيا .. لكنه تمالك نفسه وشدَّ على أسنانه وهو يُخرج الكلمات من بين شفتيه ..:

ـ وحلمك يا أبله!!! كيف ستزرع حلمك إذا لم تقطف حشائش خوفك .. ورغبتك في الرحيل ..

رفع حوزيه رأسه بإرهاق .. وهو يتفقد بندقيته ..

ـ أي حلم .. أزرع .. وكل ما حولي يبالغ في استفزازي .. حجارة .. أطفال شياطين .. انتحاريون .. و .. وقد يكون عدم الحصول على الحلم هو الحلم!!

وبسخرية يتمتم: لقد تركت بلادي .. حتى أموت هنا ..!! وبخطوات سريعة إلى الخلف حاول الهرب ..

ـ أمسك به مانس بغيظ: هذه بلادك يا أبله ..

ـ بلاد تنشر الخوف، تزرع روحك قحطاً وشظايا تفتتك من الداخل ليست بلاداً .. إنها بلاد من ورق .. ليس فيها من الحقيقة شيء.

ما زال الرجل يقترب يُلوِّح للجنود ويبتسم ويقترب غير مبالٍ بالطلقات النارية.

ـ صرخ مانس: أطلق النار يا حوزيه!

ستر وجهه بكف، وبالكف الأخرى أطلق النار.

توقف الرجل الغامض .. رافعاً القميص عن صدره كما طلب منه الجنود .. تفقد مانس الرجل، تبين أنه خالٍ من أي حزام ناسف.

يكاد يختنق وهو يساعد مانس في تكبيل الرجل بقيود بلاستيكية رقيقة لكنها حادة.. ليس حزناً عليه .. بل على نفسه .. فهو لا يفعل شيئاً سوى إطلاق النار والانتظار .. انتظار .. محشوٌ بالقلق والعتمة . .

حمل مانس الرجل الغامض إلى داخل سيارة الجيب ..

وصل الجنود بفريستهم، مركز التحقيق، كان الجنود يركلون الفريسة ويدوسونها بأقدامهم وهم يقهقهون بصوتٍ عالٍ وحوزيه يراقبهم ..

كان الرجل صاحب الجثة الضخمة والشعر الأشعث يرتعش برداً وخوفاً، المخاط والدم يتدفق من أنفه .. يطفئ المحقق سيجارته في المنفضة وهو يتوعد الرجل بإطفاء الثانية في عينيه إن لم يعترف بسبب اقترابه من الحاجز . .

ينبعث من جسد الرجل .. خيط عريض من البلل .. يلوث بنطاله ..

يصرخ المحقق. إنه يبول في ثيابه ..

أخذ الرجل يجهش ببكاءٍ ثملٍ بالرعب، عندها .. انتبه الجنود فجأة .. أن فريستهم ما هو إلا متخلف عقلياً، أعادوه إلى سيارة الجيب مرة أخرى والقوه قرب الحاجز وهو ينزف دماً .. وقذارة . .

لقد شعر حوزيه في هذه اللحظة أنه ليس بإمكانه أن يبقى معهم لكن الكلمات فلتت من لسانه لتستقر داخل حلقه!!

القلق.. والعجز .. والترقب المخيف هو كل ملامح حوزيه! ما الذي يجبره على حياة كهذه، حياة تتجمع ببطء على حواف الموت .. وهو الذي كان ينعم بدفء الحياة.. وتوهجها.

يضحك حوزيه .. وهو يشعر أن هذه الأرض تطبق على أنفاسه .. تلتف حول عنقه رعباً، يحن لأحبائه وعشيقته ..

ـ خذلتني هذه الأرض يا مانس . .

ـ بل أنت الذي خذلها يا أبله . .

ـ إنه الرعب يا مانس .. الذي يصيبنا من أي عابر للحاجز، قد يكون العابر .. رجلاً عادياً .. طفلاً .. شيخاً .. امرأة .. مجنوناً، الخوف يصيبنا بعمى الألوان، يجعل كل شيء قابلاً للتضخم، نكاد نفقد صوابنا حين نرى أيّاً منهم، إنه أمر يدعو للشفقة أن نتبعثر ضحكات يائسة على شفاه رجال مجانين. ثم أخذ ينظر من جديد في الأفق .. يستعد لعابر آخر.

كان مساءً مطعَّماً باللهفة والشوق، لم تكن تصدق أنها بعد دقائق ستحضنه وتقتنيه بين يديها كما كان صغيراً، تراقب الجنود وهم ينزلون من الطائرة، تراقب دموع الأمهات وهن يحتضن أبناءَهُن العائدين لِتَوّهم من العراق، تراقب الزوجات والأطفال والعشيقات، الدقائق تحك رأسها .. فتترك آثاراً .. لخوفٍ وترقب يجب أن يُحسم .. لأنه لابد قادم لم تكن تصدق أنها ستراه مرة أخرى، اعتقدت أن تلك الأرض البعيدة .. ستمد لسانها.. لتعجنه داخل فمها.. ثم تبتلعه.. الأفكار تحصدها بشرها.. ووجهه لم يطل بعد .. أيعقل أن يكونوا أدرجوا اسم ابني خطأ في قاعة العائدين؟!! تتساءل.. بصمت وهي تنظر في وجوه الجنود العابرين الممر المؤدي للخارج..

هل كان من الواجب فعلاً أن يغامر أبناؤنا .. بحياتهم من أجل ..!! هل ما يقال لنا صحيحٌ؟، وحدهم يلتحفون الخوف والرعب في بلادٍ تسخر منهم!!

احتضنته بذراعيها، زرعت رأسها في صدره، كأنها تريد أن تتأكد من نبضات قلبه، مرَّرت أصابعها على وجهه ورأسه ويديه لتتأكد أن رصاصهم لم يمزِّق شيئاً من جسده، ثم أخذت نفَساً عميقاً وأخرجته ببطء ممزوج بالغبطة.

أمسكت بذراعيه تجره كطفل صغير .. لكن لحظات غبطتها لم تدُم، إذ اقتنصتها ارتعاشة غير معهودة من جسده، وازرقاق حَدَّ الارتجاف من شفتيه .. ظل صامتاً .. بدهشة وحيرة طوال الطريق من مطار بوسطن إلى منزل العائلة.

ظلت تتحايل عليه بالأسئلة، وتلقي النكات على مسمعه، عله يتكلم، تحدثه عن صديقته كارولين وأنها الآن في انتظاره في المنزل تحضر عشاءً يليق بقدومه، لكنه لم يردِّد سوى عبارة واحدة:

ـ لقد خدعونا، لماذا ألقوا بنا إلى الجحيم!!

في المنزل كان الكل في انتظاره، أخته، أخوه وكارولين، لكنه بدا شارداً مذهولاً وأخذ في البكاء .. ثم تهاوى على الأرض.

فتح عينيه، أخذ يصرخ:

ـ أين أنا؟ أين أنا؟ لا أريد أن أذهب إلى هناك، لا أريد أن أذهب إلى هناك.

ـ أنت في المستشفى، لا تخف يا بني .. ثم عاد في غيبوبته ثانية.

ـ بألم قال الطبيب: إنه يعاني من صدمة عصبية شديدة، وذلك نتيجة

مشاهدته ومشاركته في القتل، ذلك أمرٌ طبيعي، لا تقلقوا سيتعافى ويعود إلى ممارسة حياته الطبيعية.

بدأت أمه تصطحبه في كل يوم لجلسات العلاج النفسي.

عند الطبيب .. ظل صامتاً .. والطبيب يتكلم ويتكلم .. لكنه أخذ في الضحك فجأةً عندما قال له الطبيب:

ـ سنمحو كل شيء رأيته من دماغك، ستعود معافى تنبض فرحاً وقوة من جديد.

أخذ يردد بسخرية والدموع تسيل من عينيه:

ـ أنا القاتل أحتاج إلى جلسات علاج نفسي وأنا المقتول أيضاً، هل رأيت قاتلاً ومقتولاً أيها الطبيب!! الحقيقة هي التي تبقى في الذاكرة ولا يمكن أن تُمحى، مهما حاولت وحاولت.

ثم قل لي، وهؤلاء الثكالى والجرحى الذين كنت أحفر اسم كارولين على بارودتي وعلى جثثهم، كلما قتلت واحداً منهم، هل ستتكفل بمحو صورتي من ذاكرتهم!!

ـ تذكَّر كارولين .. استرخِ .. ستهدأ أعصابك.

ـ إني أكرهها .. أكرهها.

ـ لماذا ..؟ أمك أخبرتني أنها صديقتك.

ـ أكرهها، لأني كلما تذكرت كارولين، أشعر بمتعة تفريغ ذخيرتي في أجسادهم، أحياناً أفرغ ذخيرة كاملة في جسد واحد .. أتدري لماذا؟ لأرشو

جسدي وروحي الجائعين لها، هي التي كانت تحثني على القتل تماماً مثل قائد الكتيبة، كان يصرخ، إذا لم تقتلهم قتلوك تقدَّم .. تقدَّم.

وأصرخ .. سيدي إنهم مدنيون بلا سلاح!

-إنهم إرهابيون .. أَتَفْهَم .. أطلق النار.

- قائدك على صواب، كل المدنيين إرهابيون، حتى العائلات، أتدري لماذا؟ لأنهم يحمون الإرهابيّين، ولذلك نحن نقوم بقصفهم.

- لقد خدعوك مثلما خدعوني، ما لنا ولأرض ليست لنا، نحن لسنا سدنة الحرية والديمقراطية، هذه الأرض البعيدة هي التي ستحصدنا بشرها ومكرها.

- دعني أسألك سؤالاً .. ألهذه الدرجة تحبهم وتشعر بعقدة الذنب تجاههم؟.

- لا .. أنا لا أحبهم .. لكني لا أكرههم .. إنهم لا يعنون لي شيئاً سوى .. إنهم احتلوا ذاكرتي .. عندما أريد أن أستسلم للنوم .. تأتيني صورهم واحداً تلو الآخر .. يقفون عند رأسي يرشقونني .. ذعراً وقلقلاً. أرجوهم أن يسمحوا للنوم باحتلال ذهني .. لكنهم يرفضون، حتى الصباح .. تتناوب صورهم .. لا يتعبون ..

أريد أن أعيش ككل الأمريكيين، أعمل .. أسهر مع صديقتي .. أشرب النبيذ .. أسافر مع أصدقائي .. أريد أن أعيش حياة طبيعية خالية من صور القتلى.

كنت أتأمل وجوههم لحظة تصويبي النار تجاههم، كانوا يثيرونني .. يمزقونني بسخريتهم مني.

في مرة وقعت على ظهري وأنا أداهم أحد البيوت، ولم أستطع القيام وقد ملأني الرعب تماماً كصرصار وقع على ظهره، التقطني صديقي، وقفت، صوبت بندقيتي، كان الرجال والنساء ينظرون إليَّ بهلع .. لكن أحداً منهم لم يستجدِ، بصق في وجهي أحدهم وأنا أجره مقيداً إلى خارج المنزل، ثم بلع رصاصتي، ثم أخذت أبكي .. وأضرب قدمي بالأرض .. إنه يملك أن يبصق في وجهي .. مع أنه بلا سلاح.. ولا أملك أن أرمي بارودتي وأهرب .. أبكي عجزي وقوتهم، وأبكي حريتهم وقيدي، أنا عاجز بسلاحي وهم أقوياء بأنفتهم ومواجهتهم الموت، أتدري أيها الطبيب.. (وتحرك توماس خطوات تجاهه ..) ارتد الطبيب إلى الخلف حذراً.

ـ لا تخف أيها الطبيب أنا لست بمجنون، أريد أن أمثِّل لك كيف نحيا كالفئران المذعورة عندما نريد أن ندخل مدينة من مدنهم، جثا على ركبته كفأرٍ نظر حوله ثم رمى عقب سجائر .. (تخيل أيها الطبيب أنها قنبلة) إنها الآن تفجر المنزل .. ثم نطمئن أن لا أحد من سكانه على قيد الحياة .. ثم نسير وهكذا .. لم نكن نستطيع المرور أمام منزل إلا بعد أن نسويه بالأرض فتختلط الدماء والأشلاء بالتراب وتختلط روحي بجمرٍ يكويني ويجعلهم يلمعون!! إنها أرضهم .. تعرفهم .. تداري صوت أنفاسهم، أما نحن فكانت تلعننا، تلاحق رجالنا المدججين بالأسلحة وبالخوف فتجعلهم بلا

ملامح تفضح عريهم وذعرهم تسخر من حمقهم .. تكويهم بجهلهم أرضاً لن تمنحهم سوى الموت أو الجنون.

كثيرًا ما كنت أضع يدي على الجثث بعد قتلها، لا أدري لماذا كان يستهويني هذا العمل فأحسها ساخنة تلسعني، ويدي باردة .. باردة كجثة ستأكلها الديدان ..

ثم صرخ .. وأخذ يضرب رأسه بيديه .. لا أريد أن أراك، ابتعدي .. أيتها الطفلة ابتعدي . .

ـ اهدأ .. اهدأ .. سنمحو كل صورهم من ذاكرتك .. يا توماس . .

ـ لكن توماس أخذ يصرخ ويصرخ . .

تنهد الطبيب وضرب كفاً بكف كمن يبحث عن وسيلة أو حيلة يقنع بها مريضه.

ـ ألا تريد أن تتخلص مما أنت فيه، هؤلاء حثالة لا يستحقون أن تملأ رأسك بهم يجب أن لا يعنيك أمرهم . .

ـ قلت لك لا يعنيني أمرهم .. ما يعنيني صورهم التي تملأ رأسي قسرًا .. تنخرني حتى ترديني هبوطاً.

ـ استمرت جلسات العلاج النفسي طويلاً .. والصور ما زالت تلاحق توماس، وتوماس ما زال على حاله لا يتغير .. تذهب به أمه ثلاث مرات في الأسبوع إلى الطبيب النفسي وتعود كما جاءت به، صامتاً، شاردًا .. واضعاً رأسه بين يديه .. صارخاً اخرجوا من هنا .. اخرجوا من هنا..

اقترح الطبيب على أمه أن تدخله مصحة للعلاج النفسي لأن حالته بحاجة إلى متابعة مستمرة، وعناية حثيثة، لكي يتجاوز المرحلة التي يمر بها ..

لم يؤثر كلام الطبيب في توماس كثيراً، فلا فرق عنده بين أن يكون في المنزل أو في المصحة، لكن ما أسعده وأثار حبوره .. وجود الكثير من الجنود العائدين معه من العراق في ذات المصحة!

قطة

خشخشة في الخارج .. أصوات غريبة .. همهمات محمومة .. مذعورة تقف .. تشعل النور .. تدور في أرجاء الفيلا الكبيرة مثل ساعة ضيعت عقاربها ولا تعرف في أي زمان ترسو، تقترب من الباب تحاول أن تتعرف من طبيعة الصوت ماهيته، رائحة لصوص .. رائحة جنود الاحتلال لا تدري!!

تنكَبُّ على خزانة ملابسها، تحاول فتحها والاحتماء بها .. وكأنها تهرب من عالمها المخيف.

-ليس سهلاً على امرأة في مثل سني أن تعيش وحيدة بلا أولاد ولا زوج لكن لا يهم، لا شيء ينقصني .. فيلا كبيرة، أموال كثيرة، أوقات مكتظة بالعمل والمواعيد .. وتجهش بالبكاء وليلٌ أسودُ صامتٌ يصلبني بشيء من الانتقام تحت أسياخ الصقيع. آه لو عندي ولد .. حتى لو كان مجنونًا .. كان على الأقل سيُكسب حياتي دِفء شمس لم أشعر بها يوماً، كان يمكن أن يجعل أنفاسي ترتعش في أضلاعي .. ألقاً، ترقص بشموخ ولذة، كان

سيمنح عمري وقارًا وتفاصيل كثيرة تُشبع أيامي المقفرة.

تدفن رأسها بين ركبتيها: «أتمنى لو أدفن رأسي في صدره ..» تدفن حيرتها وندمها .. «إذا التقيت به سأتزوجه لن أرواغ واتدلل ..» تنتحب بصمت .. وهي لا تدري هل تنتحب خوفاً... أم حسرة!!

ـ كم كنت غبية حينما كانت أمي تطفئ أنواري، تطرد خُطّابي، وأبقى كعصفور وقع في فخ يتخبط ويتخبط، يظن أن جناحيه قد فُقِدا مع أنهما ما يزالان يرِفّان، ها أنا أتقاضى ثمن غبائي وصمتي ضرباتِ سكينٍ في ليلي الطويل، كانت أمي تصُك على وجهها عندما يأتي عريس متواضع الحال.. وتعتبر ذلك إهانة لها ولعائلتنا العريقة، ترفضه .. وعندما يأتي عريس بمواصفات أمي ولا يملك .. غيمة .. تشبه غيمتي .. ثقافة وعلماً .. أرفض.. لم يكن يهمني الأمر .. فأنا جميلة وغنية .. وأحمل شهادة عليا .. لكنه .. أتى.. وأتى باكرًا .. وأمي رفضته .. ما زال صوته يلامس مسمعي.. وظلت أمي ترفض حتى نزَّت التجاعيد على وجهي ومرَّ الخطاب على محطتي لكنهم لم يعودوا يلتفتون إلى قطاري الذي قطع مسافاتٍ طويلة!!

تبتعد عن الخزانة، فهي تعرف أن الخزانة لن تحميها، لا تستطيع أن تخدع نفسها أكثر من ذلك. ما تحتاجه في وقت كهذا ليس خزانة، وإنما .. أنفاس رجل .. وكتف رجل .. تحتمي به وتتكئ عليه!!

تقف أمام المرآة .. تتمرد على خوفها .. وعلى الصوت المخيف في الخارج.. تتأمل نفسها .. خطوط حمراء دقيقة رسمت بدقة متناهية حول

عينيها الخضراوين .. وخطوط أخرى حول فمها .. تتحسس جسدها الذي يتصبب عرقًا .. رائحة أنين تفوح من مسامات جسدها المتعب الخائف.

حولها يجتمعون .. هو يقف فوق رأسها .. طفلان عن الميمنة وطفلان عن ميسرة الصورة وصغير وليد على حضنها، رائعة ستبدو لو كانوا حولها، قوية وباهرة لو كان يضع يده على كتفها بحنان.

تنفض رأسها .. خصلات شعرها ترتطم بالمرآة .. تصرخ: ما أقسى هذه المرآة .. إنها تسخر مني .. تعبث بضعفي وخيبتي.

تتململ أمام المرآة .. تعجب لرؤية صديقتها مُنى التي لم ترها منذ أعوام كثيرة، عانقتها بلهفة:

ـ يا الله .. من زمان عنك يا منى.

مُنى الصديقة المتعبة المرهقة من طلبات الزوج والأطفال، مُنى التي كنت أعايرها بسواد يلف عينيها وشحوب وجهها .. الآن يلتمع في عينيها بريق عز وفخر واطمئنان محاطة بإكليل من شابين.

ـ من هؤلاء؟.

ـ أبنائي .. اسم الله عليهم.

الإكليل يلتف حول عنقها يخنقها .. صوت الخشخشة ما زال يكبر ويكبر كفقاعة هواء .. ينفخها ذعرها. تحاول أن تتجاهل صوت الأقدام في الخارج، تفتح خزانتها، تقع صورة والدتها في يدها .. تنظر بوقار وكبرياء.

أخذت تضحك بصوت عالٍ، تبادلا النظرات بانكسار:

ـ سامحيني يا ابنتي .. لقد ظلمتك.

تمسح دمعتها، تسقط بقايا الدمعة على الصورة فتختلط بقايا الدمعة بملامح الأم .. ترتفع الأصوات حولها.

صوت طفلها البِكر يؤنّب الصغير .. وتلك تصرخ في المطبخ لا تستطيع الوصول إلى الرف العلوي في الثلاجة لتناول الماء .. وزوجها في غرفة النوم يصرخ غاضبًا مطالبًا إياها بمشاركته في البحث عن الزوج الآخر للحذاء.

رمقت والدتها باستغراب!! لفت جذعها بتحدٍّ وبصوت كلُّه زهوٌ:

ـ ألا تسمعين ضجيج الأطفال حولي يا أمي.

دارت في الغرفة فرحًا، ألقت بنفسها على السرير بطرب فصفعتها برودته.

تضيق أنفاسها، تقترب من النافذة ترفع الستارة بيد لتعرف مصدر الصوت المخيف وباليد الأخرى تحمل سكيناً. وبصوتها المبحوح .. الذي يشبه أزيز سيارة هرمة:

ـ يا لك من قطة ..!! كيف استطعت أن تحدثي كلَّ هذه الضجة من غير أن أفطن لك!

لحظتها انتبهت .. أنَّ مجرد قطة كافية .. لتعبث بذكرياتها. قطة أمسكت بفرشاة أحلامها .. وأخذت ترسم كل ما مضى .. قطة جعلتها تعي قدرها .. وتعترف بسواد ليلها!!!

الدراجة الهوائية

في كل يوم يدخل إلى غرفة اقتطعها من المنزل الكبير، يبدو وجهه حين يهمّ بدخول غرفته مثقلاً بالهم، مُستفزاً غاضباً، يدخل الغرفة يغيب فيها ساعات وساعات، لا يجرؤ أحد أن يدق عليه الباب، كم مرة حاولت زوجته أن تأتي له بالقهوة، محاولة اقتحام عالم غامض يعيشه زوجها بمعزل عنها، وهي الزوجة الحانية، إلا أنه كان يزمجر في وجهها بصوتٍ متهدج.

ـ لا أريد أن يزعجني أحد، كم مرة قلت لك ذلك!

لم يكن بوسعها إلا أن تضع كرسياً قرب الباب، تترقب خروجه لأنها كانت بخيبة الأنثى التي يخبئ عنها زوجها أمراً ما، تخاف تجاهله، تخاف عليه، لا تعرف، لكن بالتأكيد جلوسها قرب الباب يريحها قليلاً.

يخرج أبو سامر من غرفته، يقفل الباب بالمفتاح، يعود بعيون معتذرة، كبارودة أفرغت ما بداخلها من فشَك فغدت خفيفة.

أوشك أن يشارف على الستين، وما زالت هذه العادة عنده منَفضة

لأمور كبرى لا يعرفها أحد، ولم يفلح أحد في فك طلاسمها، صوت الأحفاد يرتفع باللعب الممزوج بقليل من النكد والمناكفة، لكن بعد قليل يهدأ الصوت ويخفت، كأن أمراً جللاً قد حدث.

يقال عندما يهدأ الأولاد إن مصيبة قد حدثت، وهو في طريقه إليهم ليستطلع الأمر فإذا بالأحفاد ينادونه.

ـ جدو، تعال انظر .. انظر

يقترب من أحفاده، الجميع يحدق في التلفاز، ظل واقفاً والأطفال يراقبون طفلاً يحاول أن يقتلع دراجته من بين الركام، يداه صغيرتان لكن صوت أنفاسه كأنه ريح صرصر.

ـ بانزعاج ينظر سامر إلى أبيه: هذه الأنفاس جديرة بأن تخلع حقائب الأغراب، ستشعل في الصوت الشائخ رنينه ومداه ..

يقاطع الأحفاد: انظر يا جدو إلى ذلك العجوز القابع على ركن عالٍ من المنزل المهدَّم، أسنانه مقلوعة، يعصر صدره بيده، يوشك قميصه أنْ يتمزق.

ـ يا أحفادي عندما يجدف القهر بمجداف الصمت لابد أن نصل إلى هذا التمزق ..

تسقط الصور والمشاهد وكلمات الأحفاد على رأس أبي سامر، كضوء ساطع قوي على زاوية معتمة تفجر تفاصيل ما زالت دافئة رقراقة.

ـ آه كم -حاولت بجنون طفل أن أخلع دراجتي من تحت الركام، أركل الأحجار تارةً، أمسكها حجراً حجرًا، محاولاً سحب دراجتي بلا جدوى،

أحاول أن أفتح عينيَّ أكثر وقد غشاهما الدمع فلم أعد أرى شيئًا، أحمل الأحجار، أمسح بها دموعي فتنشر شظاياها في عظامي، في صباحاتي وعروقي، أجول في أنحاء المنزل المحطم، أقترب من والدتي على الحطام، أجلس قربها أسمع دقات قلبها الذي يحتفظ بالأنواء ولا يتركها تسيل خارجاً، أدس رأسي في صدرها، أسمع كيف تغرز دمعها إلى الداخل وتزغرد.. تملأ المكان في الخارج لتغيظ الجنود وبعض الشامتين، كنت أراها تُقلِّب الحزن بين يديها كما تقلب رغيفاً ساخناً حتى يبرد.

ـ آه يا جدو ما أصعب أن تَئِدَ أُمنيتك، فهذا يعني أنك مرهون لليأس.

ابتسم الجد أبو سامر وقال:

ـ إذا نَمَتْ أمنية في قلبك وحاول أعداؤك أن يدفنوها لا تبحث عن أمنية أخرى، أمنيتك البكر حاصرها حتى لا تهرب، آنسها حتى تبقى غضة، هزها كل حين حتى تبقى يقظة، معنى أن تقف عند أمنيتك المسحوقة أنك ضعيف، وأن تتجاوزها لغيرها فهذا يعني أنك خائن، قف خلفها وادفعها حتى تعلو وتعلو، لا تصنع أمنيات جديدة فتضيع خريطتك وتتلاشى في شوارع تنبذك وتسخر منك.

انتفض الأحفاد وهم يقرؤون بين حروف الجد وكلماته ذكريات تلونت بلون البركان.

كان الفجر قا. بدأ يغزو ليلاً ظنه الأحفاد طويلاً لأنه ليل شتاء، وفي هذه اللحظات صمم الجد أبو سامر أن يرسم من وهج أمنيته خطوات ببريق للأحفاد.

دخل الجد إلى غرفته المغلقة، لم يكن مهموماً ولا حزيناً، دخان القهر والاحتراق بدا قناديل خافتة تضيء ولا تخنق.

لم ينبه الزوجة إلى عدم لحاقه، لم يصرخ لأنها لحقته.

فتح الغرفة، الكل يراقب بدهشة عطشى، يقفون بعيدين يراقبون المكان دون أن يجرؤوا على الاقتراب منه.

بصوتٍ مرتجف مطرز بكثير من الدفء، ودموع بدت حسيرة لكنها منحته عمراً فوق عمره فشعر بالرضا، نادى الأحفاد، صلاح وعمر .. اقتربا من الغرفة .. المغلقة ..

اندفع الأحفاد، أطلوا على الغرفة، نظروا إلى الجد، فأومأ برأسه موافقاً على دخولهم.

ـ صرخ الأحفاد: يالله هنا الكثير من الدراجات الهوائية!!

يقفزون، يتطايرون فرحاً، ينظرون بفرح وتشفٍّ بالآباء البخلاء الذين كانوا يرفضون شراء مثل هذه الدراجات لهم.

قفز صلاح وطوّق عنق جده ولثمه قبلات وقبلات.

استدار عمر وطارق وركضا نحو جدهم، كادا يلقيانه أرضاً، قال جدهما وقد توسد عينيه نشيد أطربهم:

ـ ما رأيكم أن نجرب ركوب هذه الدراجات ..

هلَّل الأطفال للفكرة، ركب الأطفال والجد كل على دراجته، التفت الجد إليهم وسألهم:

ـ إلى أين تريدون الذهاب؟؟

أشار صلاح على جده بأن يقرر المكان الذي سيذهبون إليه، قال الجد:

ـ إذًا سنتجه إلى مكان لطالما شغفت باللعب فيه مؤكدًا لهم أن السباق لم ينتهِ وأن الفرصة في الفوز كبيرة أمامهم.

حَالة تـقمُّص

منذ ذلك اليوم الذي صرخ فيه صرخته الأخيرة قلت لنفسي:

ـ لن أكون سوى خالد ..

عندما يشتد القصف خارج المنزل ويلقي في أسن الأرض ما يُعرِّي سكونها، وينفث، لا جدوى للحياة في جدب القلوب، أُسرع وارتدى ملابس خالد، أَندسُّ في فراشه الرَّث الذي كان يجلس عليه طوال الوقت، ألتحِف بلحافه المهترئ كقدميه، أصرُّ على الاحتفاء به، وعلى الاستمرار في بعث جمر يتلكأ، أَنظر من النافذة التي كان يطل منها على مخيم ينبض بأطفال تمنى أن يكون معهم، لكن أمنيته كان يطاولها العجز.

حينها كنتُ أجلب له الطعام، وأحاول أن أتسلل بسرعة لأساعد أمي في ترتيب أمور البيت قبل حضور والدي، كان يشدني طالبًا مني المكوث قربه، لا يريدني أن أتحدث بل يريد أن أسمعه، أنصت لكنه يبقى شاخصًا في الأطفال يتراكضون في الشارع ثم ينتفض من سهوه .. قائلاً:

ـ أتدرين يا حنان، أحيانًا التفاصيل الصغيرة لها طعم ألذُّ بكثير من أعظم الأحداث.

ـ ماذا تعني يا خالد؟

ـ مثلاً المشي، له طعم كطعم الحصار.

ـ وكيف ذلك؟

ـ عندما يمشي المرء يحاصر خيبته، يحتال على انكساره، ينضو حزنه ويدوسه، عندما يمشي يكون أقرب إلى الأرض، وكلما اقترب أكثر أحس بنبضها، وأنه بضعٌ منها، فتخصب روحه لنكث غزْل واهنٍ أحاط بعنقها.

أَتمنى يا حنان أن تكون قدمي مسنونة، لأريح أبي وأمي من حملي على أكتافهم ساعة تطمع القذائف بالمزيد من الضحايا، لا أريد قدمين لألهو .. وأتكسَّب الفرح بهما. أُريدهما لكي أفرَّ بكِ وبإخوتي وقت القصف أُعينك على مغالبة الخذلان.

جلبة تجتاح سكون الليل، أضواء القنابل تجرح العتمة، فتسيل أصوات فزعة، منها صوت أمي تحثني على الإسراع في الهرب قبل أن تتسع الكوة التي في الجدار، وأنا أصرُّ أن أبقى في الفراش الرث الذي كان يجلس عليه خالد.

ألحظ وجهَ أمي يغتسل بالضوء المشعِّ حينًا فتظهر ملامحها متوسلةً مذعورة، ويظلم حينًا آخر، حينما تكون القذيفة قد هوت، وجهها أشبه

بسرج شُدَّ بقوة على حصان هائج، دموعها متحجرة في زاوية بعيدة تثير الغير للبكاء، وأبي وجهُه كسمكة أُخرجت لتوها من الماء ترفس وترفس.

يصرخ أبي، يظن أني بصوته الحادِّ سوف أرتجف وأهرب، أضحك في سري، لم أهرب من الموت؟! فهل سأهرب من صوته؟!!

بعيون تقدح شرراً، وبصوتٍ يهاجر إلى آذان أخرى لكنه لا يصل إلى أذني يحاول أبي أن ينصب فخاً حنوناً، يحدثني ناصبًا فخه بدقة والقذائف تقصف وتقصف.

ـ لماذا تُصرّين أن نجترَّ الألم مرة تلو المرةّ؟

يُخفِّض من نبرة الوعيد، نظراته تتأرجح، يجثو قربي والنيران تتبع آثارنا، يمسح على رأسي يقبل يدي:

ـ اخرُجي يا بنيتي وإلا سينهار الجدار عليك ..

ـ لست بحنان، أنا خالد ألا ترى هذه الأقدام إنها لا تشبه أقدامكم إنها تشبه أقدام خالد بل إنها أقدام خالد، تلتئم معه تكمل حقيقة خالد ..، صدقني يا أبي ليس لدي متسع على إنجاب المزيد من الخطوات الهاربة.

يقف أبي على باب الدار، يحمل أخواتي الصغيرات، عيونه تتعلق بي بلا خيوط، أمي تركض نحوي، تصرخ:

ـ ليس هناك وقت يا مجنونة ..

تنظر نحوي تارةً وتارة إلى الأمام باتجاه الباب، المسافة ما بين الباب

وبيني هي المسافة ما بين الخوف والرجاء، تضرب على رأسها ترتعش وهي تترقب جرحًا آخر، تهزني بشدة، تصر على حملي وتحريكي كلما حركتني التصقت بالأرض أكثر.

انتعشت كثيراً، لم أكن أعلم أني أحمل كل تلك القوة بين أضلعي، إن الإنسان قد يكتشف في وقت امتزاج الحياة بالموت أشياء لا يعتقد أنه يحملها.

أدير وجهي باتجاه النافذة حتى لا يتفاقم إحساسي بأمي فأرضخ لرغبتها.

صرخت أمي..

ـ ربما من الأجدى أن تصرخي عندما تتيقنين أن هناك من يسمعك.

ـ الآن يمكنني أن أصرخ، ربما في الغد يضيع صوتي، أستطيع أن أجزم يا أمي بأن صوتي وإن غرق الآن فسيطفو في رؤى وحنايا كثيرة.

بدأت أمي تفقد خيوطها معي الواحد تلو الآخر، صارت تخطو مبتعدة عني، بصوتي أحاول أن ألحقها.

ـ أنت تصرين على البقاء حتى تلتهمك النيران، كما التهمت خالداً، تعتقدين بذلك أنك تُكفِّرين عن ذنب لم تفعليه.

ـ وما ذنب خالد يا أمي سوى أنه لا يحمل قدمين ليهرب بهما، كان يصرخ والنيران تأكل صوته، نقف كالمجانين نترقب نهايته على مسرح مُطفأ الأنوار لحضور لا يتقنون حتى الاستماع. أريد أن أبقى لأجيب على رعشة

جسده الضعيف، لأرتجف وأنا أحدق في عينيه اللتَين لم تفطنا أن الجمار قد رقدت في فم الصقيع، عله يسامحني، وعلي أن أسامح نفسي، أحب أن أبقى لعلي عندما أحدق في وجه الهزيمة يتفتق لي فتح قريب.

خرجت أمي، وأنا أُغُذّ السير وراءها، سألت نفسي هل يكفي هذا كي لا أنسى؟! كي لا ننسى..!

المفتاح

إهداء إلى الفنانة الفلسطينية أمية جحا

تمسح على رأس طفلتها ذات العامين، تداعب خصلات شعرها الأشقر بأصابع مرتعشة، تنظر إلى عينيها وهي تحدث نفسها وكأنها تعبئ وقوداً لفصل شتاء:

ـ ترك لي طفلة تشبهه تشفع له عندي ..

كل من في بيت العزاء يستمعون لها بحسرة ..:

ـ في المرات القليلة التي كان يأتي فيها للقائي كنت أشعر أنه يتسرب من بين أصابعي كالماء .. وكنت أواسي نفسي بأن هذا هو قدر المطارَدين.

تتسارع أنفاسها بقوة لتسبق دموعها وتمتمة على شفاه كل من في بيت العزاء تقول:

ـ جرح بعد جرح ورملة بعد أخرى.

النسوة يتحلقن حولها ترهقهن مشاعر الاحتراق التي تجتاحها في كل كلمة تقولها ..

ـ قاوم يا إسماعيل .. ولكن بكلمة، برسم، بقلبك .. بـ .... .

أدهشه ارتعاشي وأنا أتكلم. أدار أصابعه على وجهي وكأنه يتأكد من ملامحي وقال في عتاب:

ـ وما جدوى الكلمات، وعبق الرسومات إن لم تشعل جسداً..!!

ضمني إلى صدره؛ ولأول مرة منذ سنوات شعرت بأني أرتطم بآلاف النبضات دفعة واحدة، أحسَسْت صدره بركانًا يغلي .. يكاد من دفئه يحرقني .. ابتعدت وقد بعثر البكاء ملامحي. وبصوت يحمل دهشة ومرارة تساءل:

ـ لماذا يا ميسون لم أتخيلك بهذا الضعف، أنتِ من تخافين وترددين!!

لا أصدق إني أستمد قوتي من رسوماتك النافرة كعروق رقبةٍ أنهكها الزمن لكنها ترفض الاستسلام، ثم وإن تركتهم وشأنهم هل سيتركونني، إنهم يقتلون أعيادنا، ويطفئون قناديلنا ويسحبون الهواء من صدور أمهاتنا يُفتشون عن أفكارنا .. عن أحلامنا .. عن أجنتنا القادمة، يجعلونها تنتظر عند المحسوم(*) حتى تختنق وتموت، تموت الأجنة، تموت الأمهات ليس مهماً عندهم، المهم أن تموت حتى بذور المقاومة.

ضحكتُ يومها بوجع وقلت له:

ـ أنا أقوى مما تتخيل، ذنبي عندك أني أطمع بك وبالوطن معاً!! هل هذا يبدو كثيرًا؟ لم أعد أحتمل، الحسرة والخوف تظلل حياتي، وعندما

---

* الحاجز.

استنشقت عبير الحب أصبحت في نظرك متطرفة ربما، متناقضة ربما، لكن أشعر بقلبي عندما امتلأ بك صار أحلى وأبهى .. أجبتني يومها:

ـ كنتِ أجمل، فيك سحر غامض .. جاذبية لا علاقة لها بالجمال عندما كان قلبك يمتلئ بالوطن فقط .. ضحكتَ يومها وقلت:

ـ هذه وصفة مثالية للجمال!!

ـ فاضت دموعي حينها لأني فهمت أنك تهيئني لغيابك المنتظر .. وصرختُ: لم أعد أحتمل الغياب أكثر.

أجابتني يومها بأن قدرنا هو الوطن الموشى بالجراح.

ـ أرجوك يا ميسون لا تلوِّني لوحتك بلون واحد ولا تستخدمي فرشاة واحدة!! إذا لوَّنتِ لوحتك بلون واحد فستعجزين أن تمنحي حبك لألوانٍ أخرى، سيتنكر لك قلبك ويعجز عن الصهيل، فالوطن نبض عروقنا المحتضرة، عندما نريد أن نرميه وراء ظهورنا كعقب سيجارة، لا بُدّ وأن يشعل في وجوهنا الكآبة وفي أيامنا الاحتضار.

ـ أنت مريض بشيء اسمه الوطن ..

ـ وأنتِ أيضًا، والدليل رسوماتك، لا بُدّ أن تنحازي إلى الأرض لأنني في النهاية سأكون بضعًا منها.

حينها أحسست بضعفي .. فحاولتُ أن أفتح طريقاً آخر للحوار:

ـ أتذكر حينما كنا نعمل في تلك القرية النائية، وقامت ابنتنا بكسر فرشاة الرسم خاصتي، قصصت من شعرك وشعري، وبحرفية عالية صنعت لي

فرشاة رسمٍ جديدةٍ واشترطت عليَّ أن أرسم مفتاحًا.

وعندما سألتك لماذا .. قلت:

ـ لكي أفتح حزني وأطفئه، فعندما تكون بعيداً عن حزنك يحرقك وأنت لا تدري .. وكلما اقتربت منه أكثر كنت أقدر على إطفائه.

لكنني لم أكتفِ برسم مفتاح مجرد .. رسمت عدة لوحات وكان المفتاح سيدها، مفتاح يفتح الرأس، مفتاح يفتح العين، مفتاح يفتح الفم، ومفتاح يفتح اليد، المفتاح هو بطل تلك اللوحات .. مرَّ على اللوحة الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، توقف عندها وقد تغيَّر لونه، لكن عندما وصل إلى اللوحة الرابعة صرخ وقال:

ـ هنا تتجلى المقاومة ..

باغتتني تعليقه وحماسه لهذه اللوحة بالذات. وبتغابٍ مني قلت:

ـ مفتاح يفتح اليد .. أين المقاومة؟

ـ قال: يا مجنونة هذا ما ينقصنا.

ـ لكن ذلك .. يعني الموت!!.

ـ المقاومة لا تعني الموت، والموت لا يعني النهاية يا ميسون، إنه الموت لا يشبه إلاَّ نفسه إنه البراعة في الحضور وطمس الغياب، خاصةً إذا كان بلون الشهادة.

ـ ماذا تقصد؟

ـ انظري إلى أطفال المخيم، على صدر كل منهم صورة شهيد، على كل

حائط اسم شهيد، وفي كل زاوية أو زقاق تفوح الأحاديث برائحة الشهادة، ألم أقل لك إنهم الشهداء، يبرعون في الحضور ونغيب نحن - الحاضرين - في منعطفات موغلة في الهروب.

النساء حولها يستمعن والدموع تفر بصمت ترسم حكاية جديدة ..

- ولكي أحسم الجدل، وأكسر الخوف الذي غزا صدري .. لكنه بدأ يتوغل ويتوغل دونما رحمة .. قلت له:

- أنت على حق، أنت تعرف أن رسوماتي هي نوع من المقاومة، ولذلك هم يمنعون الصحيفة من الصدور في بعض الأحيان، ومع ذلك أصر وأحاول أن أتميز وأبرع في إيصال فكرتي، لكن أن تكون أنت أول من يلتهم أفكاري .. فهذا أمرٌ يصيبني بالهذيان!!

- أنتم الرسامون مولَعون فقط بتفريغ شحنتاكم على الورق!!

وبغضب قلت:

- الرسم هو نوع من المقاومة ..

- نعم الرسم هو نوع من المقاومة، لكنه ليس كل المقاومة والتميز مطلوب، نتميز ليس لذات التميز، نتميَّز حتى نتطور، ونتطور حتى تكون الضربة قاسية وموجعة، وقلت لكِ مرارًا المفتاح بيدكِ هو الرسم وبيدها القلم وبيدي!! .. سكت وتركها حروفًا مقطعة تنغز قلبي وتلعب به، في هذه اللحظة أيقنت أنني سأفقده ..

تبكي من جديد والنساء حولها يهدِّئن من روعها تبكي تنطفئ يسوِّرها

إسماعيل بكلتا يديه فتعاود الاشتعال تصرخ ..

ـ لماذا أنت يا إسماعيل؟ لماذا أنت؟

يجيبها وهو يطبع قبلة على جبينها:

ـ كيف الفكاك من حب يهتك حتى نومك وتتعثر به في صحوك ..

كان في كل حوار يزيدني إرباكاً، وتوقعًا لمفاجأة ما، وعندما غاب آخر مرة وجاء للقائي على عجل، كان راضياً؛ على ملامحه توهُّج لم أكن ألحظه من قبل، وتعمَّد أن ينظر في عيني ولم أحاول إخفاء دمعي.

كان ينظر إلى الساعة كثيرًا .. فسألته والخوف يقطع حروفي:

ـ أأنت على عجل؟؟

لم يجب .. فقط رجاني أن أغمض عيني واضعًا رأسي على صدره مرددًا .. جففي دمعك، على استحياء أرى الدموع وقد عبثت ببياض عينيك فجعتله جمرًا ..

تنفس بعمق واستدار ليخبئ دموعاً تقف في مواجهته أيضاً وخرج .. صرخت إلى أين؟؟؟

في المذياع .. في التلفاز .. تحدثوا عن عملية كبيرة ولكنهم لم يتحدثوا عن منفذها ليس لأنه لم يوقع خسائر في صفوفهم بل لأنهم شعروا بالخزي عندما أخذوا ينقبون في مكان العملية ليلتقطوا جثة المخرب فوجدوا مجرد ريشة رسام.

لم أكن صغيرة حينما ماتت أمي، ولكن هل موت الأم يقصم ظهر الصغار فقط ؟ صحيح أنه مؤلم وقاسٍ على الصغار.. لكنه للكبار بطعم الشتات والمنفى .. أحسَسْت حين موت أمي أني بلا وطن.. نعم الأم كالوطن، فعندما يفقد الإنسان أمه يفقد وطنه.. فكيف بمن يفقد وطنه مرتين؟

وبَدأَتْ تغزو كل تفاصيل حياتي .. في الحقيقة لقد أرهقتني .. أرهقتني لأنني لم أعد أرى للأشياء حولي لونًا.. ضحكة طفلتي ومحاولتها الكلام بحروف مكسّرة لم تعد تثير فرحي.. لأني فقدت ضحكتها، حضوري لمنزل العائلة.. لم يعد يعنيني، أشعره معتماً قارصاً كالثلج، وببرودة الثلج تلسع كالنار.